جمالية التنسيق اللفظي
في المقال الأدبي الإصلاحي

د. حسين بوحسون

جامعة بشار ـ الجزائر

حظيت مسألة الصناعة اللفظية والمعنوية باهتمام النقاد قديما وحديثا، إذ عني هؤلاء النقاد بإبراز الخصائص الأسلوبية للنص الأدبي والكشف عما يتضمنه من سمات جمالية وما ينطوي عليه من تميز وفرادة، فانصب اهتمامهم على البحث عن السمة الإنشائية في الخطاب الأدبي[1]، غير أن مستويات السمة الإنشائية في الخطاب الأدبي لم تكن واحدة في نظر هؤلاء النقاد.

فهي تكمن عند القاضي الجرجاني فيما يحصل بين مكونات النص اللغوية من "نسب وتناسب"[2]، ويراها أبو هلال العسكري ماثلة في "حسن التأليف وكمال الصوغ والتركيب"[3]، ويحددها ابن الأثير في ثلاثة مستويات هي مستوى الاختيار، ومستوى النظم، ومستوى الدلالة، إذ يقول: "إن صاحب الصناعة اللفظية يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء:

- الأول: اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة فإنها تتخير وتنتقى قبل النظم.

- الثاني: نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها، لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها.

- الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم، فتارة يجعل إكليلا على الرأس، وتارة يجعل قلادة في العنق، وتارة يجعل شنفا في الأذن، ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه"[4].

إن عملية الإبداع، حسب ابن الأثير، تنهض أول ما تنهض، على اختيار اللفظ وتركيبه تركيبا فنيا بما يحقق المقاصد والأغراض الدلالية لدى الكاتب وقرائه معا؛ إذ ينطوي هذا الرأي على إدراك علمي وجمالي لطبيعة الظاهرة الإبداعية وينم عن رؤية فلسفية جمالية حيال اللغة الأدبية تنطلق من النظر إلى اللغة من داخل السياق النصي، لا من خارجه، إذ إن اللفظ خارج العلاقات النصية والسياقية لا قيمة له، ذلك أن "اللغة في شكل سياق قوة فعالة تعطي الأجزاء دلالات أو فعاليات خاصة، ومعنى ذلك أن هناك حركة خلق مستمرة في اللغة وتكيفاتها"[5]. وبذلك يتضح أن الفعالية الإبداعية إنْ هي إلا تجلٍّ لطاقة كبيرة من الإمكانات والدلالات التي تكمن في اللغة والتي يوفرها معجمها اللغوي النصي والسياقي بلا حدود.

وفي ضوء هذه الرؤية يقارب الباحث في هذا المقال خصائص الصناعة اللفظية والمعنوية في المدونة المدروسة التي تضم طائفة من الناثرين الجزائريين وهم وعبد الحميد بن باديس، وأحمد سحنون، ومحمد الغسيري، والطيب العقبي، وذلك انطلاقا من تمظهر خواص اللفظ الجمالية والدلالية في نسقين أساسين هما التنسيق اللفظي والصورة الأدبية. وسنكتفي هنا بدراسة المظهر الأول المتمثل في التنسيق اللفظي.

تبين ما سبق ذكره أن الصناعة اللفظية والمعنوية إنما ترجع في الأساس إلى الاختيار في اللفظ ثم تركيب ذلك اللفظ المختار مع غيره من الألفاظ، بما يتلاءم مع القاعدة التركيبية من جهة، وبما تقتضيه وتسمح به إمكانية التصرف في هذه القاعدة من جهة أخرى. ومن ثم فإن الحكم على اللفظ من حيث قيمته الفنية والدلالية لا يستقيم إلا إذا كان ذلك اللفظ أكثر إيحاء بدلالته من غيره من الألفاظ التي تشكل معه سلسلة الاختيارات الممكنة، وكان بينه وبين الألفاظ التي تؤلف معه سلسلة الكلام علاقة تجاور فرعية، وذلك ما يمكنه من تأسيس وظيفته الجمالية والفنية[6].

ولا شك أن جمالية التنسيق اللفظي باعتبارها مظهرا أسلوبيا في نص المدونة المدروسة يمثل فيها الاختيار اللفظي دورا أساسيا في إبراز قيم اللفظ وخصائصه

الجمالية والدلالية. ومن ثم فإن جمالية التنسيق اللفظي في المدونة تستند في تبلورها وتشكل أنساقها إلى عوامل لفظية؛ بعضها دلالي، وبعضها الآخر تركيبي (نحوي، بلاغي).

يستقي البعد الدلالي مدلوله باعتباره من خواص اللفظ الجمالية من مبدأ الاختيار الأسلوبي، إذ إن اختيارات الكاتب اللفظية وانتظامها في سياقات خاصة هو الذي يمكّن اللفظة من الانتقال من الدلالة المعجمية إلى "دلالة جديدة يحددها ائتلافها مع الألفاظ الأخرى ضمن سياق جديد"[7]، وبالتالي يخلع عليها قيمة إيحائية.

ومن مظاهر التنسيق اللفظي القائم في بعده الدلالي على الإيحاء، قول عبد الحميد بن باديس: (ومضى ثلث قرن أو يزيد والدعوة الإصلاحية تنتشر وتتقدم وتنقص البدع والضلالات من أطرافها، ولكنه لم تقم في أمة إسلامية هيئة علمية منظمة تعلن الدعوة إعلانا عاما وتصمد للمقاومة غير مبالية بما يؤيد البدع والضلالات من سلطان ديني وسلطان دنيوي غير الأمة الجزائرية، فكان من علمائها الأحرار المستقلين الذين لا يعيشون على الوظيف أولئك الذين نهضوا بالدعوة الإصلاحية من بضع عشرة سنة جاهدوا فيها لله وصابروا وأسسوا لها أعظم مؤسسة دينية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حتى أصبحت الدعوة الإصلاحية، والفضل لله والحمد لله، ثابتة الأركان، مشيدة البنيان، باسقة الأفنان، دانية الثمار، وافرة الظلال، لا على الجزائر وحدها، بل على الشمال الإفريقي كله"[8].

فمن نماذج التنسيق اللفظي الذي تعود إليه جمالية النص وأدبيته والذي يسهم في تمكين الخطاب من العبور فنيا وأسلوبيا ودلاليا إلى مستوى ثان يبرز الطابع الجمالي فيه[9] تساوق محوري الاختيار والتأليف في النص السابق، بما يمكنه من إنجاز وظيفته الجمالية ويحقق دلالته الإيحائية الملفوظات التالية: (تنقص البدع والضلالات) من أطرافها (وباستخدام جدول الاختيار يمكن أن نتصور بدائل كلمة تنقص) كالتالي:

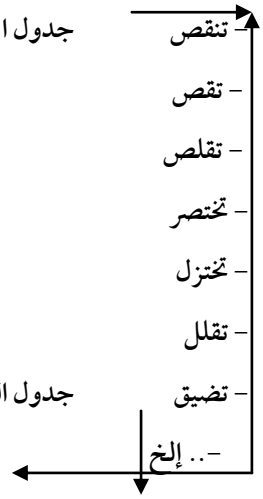

(تنقص البدع والضلالات من أطرافها)

إن اختيار الفعل (تنقص) من بين عدد من الممكنات التي تمثلها الأفعال الواردة في جدول الاستبدال وغيرها مما قد يؤدي الوظيفة الدلالة ذاتها ولم يرد في الجدول، هو مؤشر أسلوبي على خروج الملفوظ من مستوى الأداء اللغوي العادي إلى مستوى غير عادي. ولعل العلة في ذلك أن الفعل (تنقص) بالقياس إلى البدائل المذكورة هو الذي أنجز الوظيفة الأسلوبية للملفوظ؛ ذلك "أن صورة الغياب هذه تعطي للأفعال معاني إضافية؛ لأنها قريبة من النص دائما عند الدراسة، كما تعطيها قيمة الشهادة على أسلوبية الجملة"[10].

ونلحظ أن النص اصطنع الفعل (تنقص) تحديدا؛ لأنه أكثر إيحاء بالدلالة التي يريدها الكاتب، ولأن البدائل التي تشاركه محور الاستبدال حتى وإن انتظمها التركيب ذاته، فإنها غير قادرة على التعبير عن الدلالة التي يرمي إليها الكاتب، ولا عن تلك الدلالة التي شكلها الخطاب في هيئته المخصوصة التي جاء عليها، ذلك أن الفعل (نقص) من الأبنية التي يتساوى فيها "فعل اللازم والمجاوز"[11] أي المتعدي، فهذه الخاصية البنائية قد تكون الدافع الجمالي والدلالي لاختيار الكاتب للفظة فالبدع تنقص وتتناقص على السواء بفعل. العمل الإصلاحي المنتظم والمتدرج، حتى إذا صار

هذا الأمر منهجا وأسلوبا عند الجمعية استحالت عملية (نقص البدع من أطرافها) إلى حالة فاعلة ومتفاعلة؛ أي إلى حالة ذاتية في المجتمع.

وهناك ملحظ آخر يكمن في أن الملفوظ ما كان ليحقق أسلوبيته وينجز دلالته الإيحائية التي تنطوي على حمولة الفعل الإصلاحي المنظم والهادف، لولا تضافر وحداته اللغوية ضمن السياق الخاص الذي ساعد على بناء علاقتها وتأسيس وظائفها، إذ لا عبرة باللفظ خارج فاعلية السياق، فهو أشبه بالعضو المشلول الذي يفقد حرارة الجسد والحياة. ومن ثم "كانت الكلمة المفردة مجرد إشارة إلى الصورة الباردة للشيء. أما الكلمة المستخدمة في السياق فهي شحنة من العواطف الانفعالية والصور الذهنية والمشاعر الحية، إلى جانب ما فيها من معنى عقلي مجرد"[12].

فالاختيار وحده، غير كاف ما لم يؤازره تأليف للوحدات المختارة، بحيث يراعي في نظمها العلاقات السياقية التي تمكنها من أداء وظائفها الأسلوبية والجمالية. ومن ثم فإننا إذا فحصنا محور التأليف ألفينا الفعل (تنقص)، الذي هو أصلا، حدث مادي، وقد ركب في علاقات تأليفه مع الوحدات (البدع – الضلالات – أطرافها)، قد اكتسب قوة دلالية إضافية، لأن (النقص) لم يسلط على شيء مادي، هنا، وإنما سلط على شيء معنوي، فإذا (البدع والضلالات) تتناقص كما يتناقص كل شيء مادي في أصله وطبيعته، ثم إن (النقص) لم يكن نقصا عشوائيا أو غير محدد في طبيعته وماهيته وكيفيته؛ بل هو (نقص) منهجي يحاصر البدع والضلالات من كل النواحي حتى يأتي عليها ويخلص المجتمع من آثارها الخطيرة، ومن ثم كانت عبارة (من أطرافها) موحية بالدلالة السابقة. و"الأطراف جمع طرف (فتح الراء). قال الأزهري: أطراف الأرض نواحيها، الواحد طرف ونقصها من أطرافها، أي من نواحيها ناحية ناحية"[13] وجاء هذا في صدد تفسير قوله تعالى: "أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب"[14]، فالأطراف، معجميا، تعني الناحية

والجهة وهي المعيار في أداء الكلام على دلالته الوضعية، والذي يقاس عليه ما نجم عند الاستعمال من دلالات مكتسبة. ومن ثم فإن أطراف البدع والضلالات، في السياق النصي، هي غير أطراف الأرض، وأن اشتركت معها في المادة اللغوية.

ويلاحظ أن تساوق محوري الاختيار والتأليف قد حقق للملفوظ أسلوبيته ودلالته الإيحائية؛ لأن مجيء الملفوظ على هذه الهيئة المخصوصة، اختيارا وتأليفا وإيحاء، قد وسمه بملمح أسلوبي خاصا، إذ "ليس من فضل أو مزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد، والغرض الذي تؤم"[15].

وأما النموذج الثاني فهو الملفوظ (ما يؤبد البدع والضلالات من سلطان ديني وسلطان دنيوي). وباستعمال جدول الاستبدال يمكننا أن نتصور بدائل لفظة (يؤبد) كالتالي:

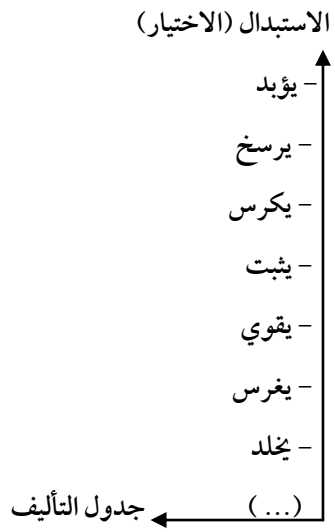

لقد وظف الفعل(يؤبد) وهو من "الأبد: الدائم، والتأبيد: التخليد"[16] إنجازا للوظيفة الأسلوبية في السياق النصي، ليس باعتباره أقوى إيحاء وأقدر تصويرا، من حيث الدلالة من غيره من الأفعال التي تشكل معه البدائل في عمود الاختيار؛ بل لأنه جاء على صيغة التضعيف في الزمن المضارع، فاكتسبت الدلالة، بذلك، قوة، وتأكيدا واستمرارية؛ لأن الفعل المضارع المضعف، وهو ضمن السياق، جعل التركيب أكثر حيوية، والحدث أكثر استمرارية، والدلالة أكثر ثراء، لما فيه من زيادة في المبنى

اللفظي[17]. فالفعل عندما يتعرض لتغيير اشتقاقي ما، أي في صيغته ومبناه، فإنه يحمل بالإضافة إلى القيم الإيصالية قيما تعبيرية [18]. والحقيقة أن الاختيار لا ينهض بالوظيفة الأسلوبية وحده، إن لم يستند، في ذلك إلى العلاقة التأليفية التي فيها "تقوم العلاقات بين عناصر استهدفها المتكلم يركب بينها وبين ملفوظه"[19]، ذلك أن محور التأليف هو الذي يمثل مستوى اللغة واقعا وإنجازا، لأن "أداء المتكلم وإنجازه اللغوي يظهران في هذا المحور فعلا. وهكذا سنرى أن إسقاط محور الاستبدال (الافتراض) على محور التركيب (الإنجاز) سيؤدي حتما إلى تشكيلات لغوية جديدة وصياغات سياقية ودلالية جديدة، وأيضا إلى ظهور صور متعددة"[20].

إن الوحدات اللغوية (يؤبد- البدع – الضلالات – سلطان ديني – سلطان دنيوي) المشكلة سلسلة الكلام في النموذج، تنهض على علاقة نحوية مفارقة ومغايرة للمعيار، فإسناد التأبيد إلى البدع والضلالات؛ وكأن الأمر يتعلق بقيم مادية جامدة، خروج عن المعيار النحوي (الإسنادي)؛ لأن البدع والضلالات قيم معنوية متحولة سلبا وإيجابا، تبعا لظروف الأمة وعوارضها وأحوالها، فإذا كان الجهل مطبقا، فإن ذلك يكون مدعاة لانتشار البدع والضلالات وتقوية سلطانها واستفحال خطرها، وإذا أخذ الوعي الإصلاحي الاجتماعي يدب في كيان الأمة، ويجري مجرى الدم في عروقها، فإن مساحة البدع والضلالات تتقلص حتما.

وهكذا نرى أن العلاقة الإسنادية التي تقوم على محور التأليف بين الوحدات اللغوية، سابقة الذكر، قد نجم عنها تلازم دلالي.

وتتأكد خاصية التنسيق اللفظي القائمة على الاختيار اللفظي بما يحقق الغرض ويولد الدلالة، في خطاب الكاتب أحمد سحنون الذي ينتمي إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مما يعني أن اللغة عند هؤلاء لم تكن محايدة، وإن خطابهم لم يكن من وحي العبثية والعشوائية، وإنما يعني أن الكاتب من هؤلاء كان واعيا تمام الوعي في انتقاء

اللغة ومفرداتها وتراكيبها فيسلكها في نسق لغوي متكامل ينبئ بخلق لغوي جديد يحقق له مقاصد أسلوبية وجمالية ودلالية.

ومن مظاهر هذه الخاصية قوله: "صادفت بمروري بالملعب البلدي خروج الناس عند فراغ أبطال الكرة من أداء مهمتهم التي أصبحت حديث الناس وشغلهم الشاغل في كل مكان، ولاسيما الشبان فرأيت جيشا لجبا وجما غفيرا لا يحد الطرف مداه ولا يعلم عدده إلا الله، ولا يعد الزحام الذي رأيته على المكتب الفرنسي جانب هذا شيئا، ولفت نظري أن معظم هذا العدد الضخم، وهذا الجمع الكثيف هو من الشبان المسلمين الذين لا يرى أكثرهم إلا في هذا الموضع أو ما شبه من المسرح والسينما"[21].

يتجلى التنسيق اللفظي الذي قوامه البعد الدلالي في الملفوظ (فرأيت جيشا لجبا وجما غفيرا لا يحد الطرف مداه، ولا يعلم عدده إلا الله)، حيث تتساوق الألفاظ (جيشا- لجبا – جما - غفيرا) للإيحاء بالكثرة العددية للشبان الجزائريين إبان الاستعمار الفرنسي البغيض، وهم يتوافدون على ملعب كرة القدم، فالوصف، هنا، لا ينصرف لإفادة المتلقي خبرا مباشرا يتمثل في وصف الكثرة الكاثرة من الشباب الجزائري، وهم يتوافدون على الملعب؛ بل يتعداه إلى إيحاءات دلالية تنطوي على أسف شديد وحرارة عميقة على حال الشباب الجزائري الذي ينفق من وقته ما لا يقدر بمال في اللهو والتسلية دون أن يأبه إلى المخاطر المحدقة به وبأمته.

حققت اللغة هذه المقاصد من طريق الأسلوب الذي جاء على كيفية مخصوصة وباختيار ألفاظ بأعيانها وذواتها وفي سياق بعينه وبذاته؛ إذ إن لفظة (لجب) التي تعني معجميا "الصوت والصياح والجلبة، تقول: لجب، بالكسر، واللجب: ارتفاع الأصوات واختلاطها(...)واللجب صوت العسكر، وعسكر لجب: عرمرم وذو لجب وكثرة(...) واللجب اضطراب موج البحر، وبحر ذو لجب إذا سمع اضطراب أمواجه، ولجب الأمواج كذلك"[22]، لا تعني ما ينضوي تحتها من دلالات وضعية؛ بل تجاوزت ذلك إلى إيحاءات دلالية لا تتوقف عند رصد ظاهرة اجتماعية معينة في المجتمع

الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي؛ بل تحذر من حركة قوية وميل جارف نحو استسلام الشباب الجزائري وضياعه في متاهات اللهو والعبث والانحراف عن الجادة في وقت أن الأمة هي أحوج ما تكون فيه إلى قوة شبابها وجهده وطاقته لصرفها فيما يفيد ويجدي. ومن ثم نرى أن لقط (لجب) في السياق النصي انتقل من الدلالة الوضعية، الدلالة الذاتية، وهي الكثرة والجلبة، إلى رسم حركة فئة اجتماعية ورصد اتجاها العام في الحياة، قصد التنبيه إلى ما ينبغي أن يضطلع به الشباب من مهام جسيمة في مجتمعه.

وقد جاء لفظ (جما) على المحور الأفقي في سلسلة الكلام متساوقا مع لفظ (لجبا) اختيارا، تركيبا وصياغة، ليصب في المقصد الدلالي ذاته، ذلك أن لفظ (جم) معجميا يعني الكثرة في كل شيء من مال وغيره و"في التنزيل العزيز: (ويحبون المال حبا جما) أي كثيرا (...) وقيل: الجم: الكثير المجتمع (...) وجم المال وغيره إذا كثر... "[23] ثم جاء لفظ (غفيرا) متساوقا مع لفظي (لجب) و(جم) في السياق النصي لفظا ودلالة وصوتا، فالجم الغفير يقال: (للمجتمع الكثير) و"جاء القوم جما غفيرا وجماء غفيرا، ممدودة (...) أي جاؤوا بجماعتهم الشريف والوضيع ولم يتخلف أحد وكانت فيهم كثرة"[24].

وهكذا نرى أن الألفاظ (لجب وجم وغفير) جاءت منتظمة أسلوبيا؛ إن على محور الاستبدال، وإن على محور التأليف، بما يحقق المقاصد الدلالية للخطاب، ولاسيما ما يتعلق منها بإثارة خيال الملتقي وتنبيه ضميره إلى المخاطر الكبيرة التي تحدق بالمجتمع وترمي إلى تقويض أركانه وهدّ أسسه وسلخه عن كيانه الحضاري العربي الإسلامي.

وفي مقال (هكذا نضب معين الرحمة؟) يقول أحمد سحنون: "ثم منظر أولئك الذين يفترشون الثرى ويلتحقون السماء دون وطاء ولا غطاء، ويبيتون للعناصر الهوجاء تفري جلودهم، وتمزق جسومهم، وتخدر أعصابهم، وتجمد الدماء في عروقهم،

وإذا استغاثوا أغيثوا بهمسات إبليس في أذن البوليس ليعطف عليهم بركلات تريحهم عن الطريق وتلق بعضهم لبعض"[25].

إن النص مليء بإمكانات الاختيار الأسلوبي في اللفظ وبالضبط على مستوى البدائل؛ إذ نجد الألفاظ (يفترشون – الثرى – يلتحقون – السماء- وطاء – غطاء – تفري – تمزق – جسومهم – تحذر – أغيثوا بهمسات إبليس – يعطف – تزيحهم – تلف) تمثل إنجازا أسلوبيا، باعتبار أنها اختيرت من بين عدد من البدائل التي ترتبط معها بسبب ما، غير أن هذا الاختيار بالذات وانتظامه في تنسيق لفظي هو الذي حقق للنص أسلوبيته وخصوصيته الجمالية والدلالية أو ذاتية ما، وذلك لمجيء الوحدات اللغوية في سياقها النصي وفق علاقات معينة وعلى نحو مخصوص. وهذا الاختيار بالقياس إلى بدائله المفترضة والممكنة هو أقدر على تحقيق البعد الدلالي الإصلاحي ممثلا في تلك الإيحاءات والظلال التي تضمرها هذه الملفوظات التي يرتسم في إطارها العام مشهد بائس كئيب لفئة من فئات الشعب حقيقة بالتضامن معها.

والتنسيق اللفظي الذي قوامه البعد الدلالي الإصلاحي يعد سمة من سمات الصناعة اللفظية والمعنوية عند الكاتب "الطيب العقبى"، ومنه قوله: "وإذا كانت الحكومة الجزائرية تعلم أن الأمة، اليوم، في مفترق الطرق تتنازعها عواصف الشقاء ونسمات السعادة، وتتجاذبها الأحزاب المتباينة والمشارب المختلفة، وإن جمعية العلماء المسلمين (وحدها دون غيرها) هي الحاجز المتين والمانع القوي الأمين الذي يحول بينها وبين أن ترتمي كلها في أحضان الأحزاب المتطرفة لتعمل عمل الآيس الحزين أو الجبار المنتقم، وتلعب الورقة الأخيرة في أدوار حياتها، وحينئذ ترجف الراجفة وتتبعها الرادفة. وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى، وهناك الرزية التي ما بعدها، في نظر العقلاء من رزية، والجانحة التي تأتي على الأخضر واليابس، وتهلك الحرث والنسل، وربما تعم بشرها الجميع وتحرق بشروقها القريب والبعيد، وتذهب بالصديق والزنديق إلى أبعد هوة وأبعد طريق"[26].

يتمثل الاختيار اللفظي في مجيء لفظة معينة في سياق معين لتؤدي مع غيرها من الألفاظ في السياق عينه وظيفة جمالية ودلالية في آن واحد. إذ إن "السياق هو الذي يفرد قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها، والسياق أيضا هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية"[27] نلحظ، إذن أن الكاتب استخدم ألفاظا بأعيانها استخداما خرق به العادي والمألوف لأجل أداء وظيفة مزدوجة طرفاها الإبلاغ والتأثير الفني ومن ذلك لفظة (الجانحة) وما توحي به من ظلال نفسية ضمن السياق الذي يؤطرها، وذلك حين يقول الكاتب "والجانحة التي تأتي على الأخضر واليابس"، فالجانحة معجميا هي "الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة وفتنة"[28].

إن لفظة (الجانحة) لم يتسن لها القيام بدورها الجمالي والدلالي إلا وهي متضافرة مع غيرها من الألفاظ في تشكيل السياق ودلالته وفي تشكيل نسيج الملفوظ وجماليته؛ إذ ليس للفظة (الجانحة) من قيمة أسلوبية ودلالية إلا بمقدار مالها من إيحاءات شعورية تعاضد في إنشائها وحدات أخرى تشاركها السياق ذاته، وهذه الوحدات، والتي تسهم في بناء التنسيق اللفظي، هي (الطامة – البلية - الرزية)، وهي تصب في حقل دلالي واحد وهو (المصيبة)، فالدلالة واحدة، وإن تنوعت المونيمات المختارة التي رصدت لها قصد التوكيد، غير أن لفظة (الجانحة) وهي اللفظة المركزية في تكوين الدلالة، هي أعمق تعبيرا، وأخصب إيحاء، وأبلغ تأثيرا من الوحدات التي تشكل معها عمود البدائل، مما يدل على أن الكاتب قد اختارها عن وعي وقصد ووضعها في سياق أكسبها بدوره قدرة إبداعية وطاقة تأثيرية وإيحاء دلاليا خاصا، بحيث أضحى الأمر، وكأن الكون كله قد زلزل زلزاله، وأن (الجانحة) التي ألمت بالأمة كان أذاها وشرها عظيما وعاما.

والواقع أن هذه اللفظة استطاعت في موقعها من السياق النصي أن تعبر عن عمق الروابط بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبين أفراد الأمة، والتي إذا انفصلت عراها أصاب الأمة الانحلال والتفكك، فالجمعية هي بمثابة الخيط الذي ينتظم فيه حبات العقد ليسلكها في نسق واحد.

والخطاب الأدبي لدى محمد الغسيري تتعدد أبعاده ومكوناته الألسنية والأسلوبية، بما يضفي عليه سمات نوعية في نسيجه اللغوي واللفظي، فالخطاب عند هذا الكاتب، وإن كان لا يخرج عن نظام اللغة القار، فإنه يشكل نسيجه اللفظي بوعي ومعرفة ووفق ما يقتضيه المبدع والمتلقي معا في حالتيهما الشعورية والنفسية [29].

إن الصناعة اللفظية، بما هي اختيار أسلوبي، تجعل النص الأدبي يشع قيما إيحائية تكون أدبيته وتميز أسلوبه، فيغدو بذلك علامة فارقة في النص الأدبي[30]، ذلك أن "المكون الإيحائي هو الذي يعد أكثر نفعا، (...) الأدبية تعطي أكبر الأهمية النسبية للقيم الإيحائية على حساب القيم الذاتية، وذلك لكل مفردة أو على الأقل لعدد من المفردات. والحقيقة أن الإيحائية من العناصر الأساسية في تحديد الخطاب الأدبي"[31].

فمن الاختيار اللفظي الذي اتخذ طابعا أسلوبيا استخدام الكاتب علامات لغوية ذات سمات نوعية مشكلة بذلك علامات فارقة في الخطاب، ومن هذه العلامات (أخلد – القارعة – لقمة سائغة – لاابترد – المؤزر) التي أتت في سياق الملفوظ التالي: "الحياة كفاح، وكفاح الرجال من أجل الحياة هو عين الحياة المثلى، والأمم الإسلامية منذ تركت الكفاح من أجل الحياة، بل منذ أخلد علماؤها إلى الدعة والخمول، ورضوا من الغنيمة برضى ملوكهم عنهم، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، منذ ذلك العهد حلت بالمسلمين القارعة وأصابهم ما أصاب الأمم قبلهم من العذاب الأليم، فتهدمت صروح مدينتهم الزاهرة في الشرق والغرب، وتشتت جموعهم، انحلت أخلاق أسرهم، فكانوا لقمة سائغة للغرب حين جد جده، وسطا سطوته، وضرب ضربته القاضية، وأصاب الشر في صميم كيانه الاقتصادي ومقوماته الحيوية"[32].

تطلب التنسيق اللفظي اختيار العلامات (أخلد – القارعة – لقمة سائغة – لا ابترد – المؤزر). وهو اختيار أسلوبي جعل هذه العلاقات تفارق طبيعتها الوضعية وتكتسب صفة مغايرة أو إضافية تتجاوز بذلك حدود الدلالة الذاتية أو درجة الصفر فتغدو حدثا أسلوبيا يحمل في طياته قيما إيحائية[33]. ومن ثم فإن العلامة (أخلد) في الملفوظ (أخلد علماؤها إلى الدعة والخمول ورضوا من الغنيمة برضى ملوكهم عنهم) تجاوزت حدود الوضع وخرقت المألوف؛ لأن السمات المعنوية للفظين (الدعة) و(الخمول) ليست من حقل الإخلاد؛ فالإخلاد أو الخلد إنما يكون للأرض والإقامة في المكان[34] ولا يكون للدعة والخمول؛ فالدعة والخمول صفتان ملازمتان لفئة من البشر فترت همتها عن العمل والنشاط، وبالتالي، فإن هاتين الصفتين أو السمتين ليستا مما يوصف بهما الأرض أو المكان، فاتصاف الفعل وفاعله بهما إنما يدل على عدم حياد العبارة؛ بل يدل على أنها تشي بدلالته خفية مفادها أن الاجتهاد، وطلب العلم والمعرفة متى توقف السعي إليهما في أمة من الأمم، انحطت ونزلت إلى الدرك الأسفل من التخلف، أو ليس التخلف دركا من دركات جهنم؟؟.

وأتت العلامة (القارعة) متآلفة مع العلامة (أخلد)، فالعلامتان معا مندرجتان في سياق واحد، إذ لم تكن العلامة الثانية إلا نتيجة للعلامة الأولى، وقد نجم عن تلازمهما أن تجاوزت العلامة الثانية (القارعة) دلالتها الوضعية أو الذاتية إلى دلالة إيحائية لعلها كانت سببا وراء اختيار الكاتب لها، و(القارعة) في اللغة "القيامة والحجة والنازلة الشديدة والداهية والمصيبة"[35].

غير أن العلامة (القارعة) لم تكتسب بعدها الدلالي الإيحائي من حيث هي علامة معزولة عن السياق، بل اكتست دلالتها الحافة، وهي فاعلة في السياق منتظمة مع غيرها من الألفاظ، ولاسيما لفظ (حلت) في الملفوظ (فمنذ ذلك العهد حلت بالمسلمين القارعة)، حيث أفاد اتصاف (القارعة) بالحلول شمولية الحدث واتساع

نطاقه، بحيث إن تصدع كيان الأمة لا يقل في انهياره وتهدمه وفي آثاره المادية والمعنوية عن فعل (القارعة) وبخاصة في الجوانب النفسية وما تتمخض عنه من إحباط يشل حركة الإنسان في التاريخ آمادا بعيدة، وهو حال المسلمين اليوم.

والحق أن العلامات (أخد – القارعة – لقمة سائغة) علامات متآلفة، ليس فقط على مستوى الخطي أو التأليفي، بل على المستوى الدلالي، وهذا ما جعلها قادرة على الكشف عن "الشبكة المعنوية التي تسبح عليها هيكلة البناء الفني"[36]، ذلك أن السياق النصي يقتضي أن المسلمين أصبحوا لقمة سائغة في فم العدو بعد ما تخلوا عن العلم وإنتاج المعرفة، وما حل بهم من القوارع لم يكن إلا نتيجة ذلك، وما يسوغ ذلك أن اللقمة من اللقم وهو "سرعة الأكل والمبادرة إليه"[37] وكأن اجتماع الحروف (ل، ق، م) إنما يجسد دلالة (الخفة والسرعة)، ولعل الجذر اللغوي (ل، ق) هو الذي يقف وراء هذه الدلالة، إذ نجدها متضمنة في كلمات عديدة تشترك في هذا الجذر من مثل(لقن – لقح – لقط – لقف...). ويمكن تخيل الدلالة التي تضمرها هذه العلامات مجتمعه وضمن سياقها النصي على الشكل الآتي:

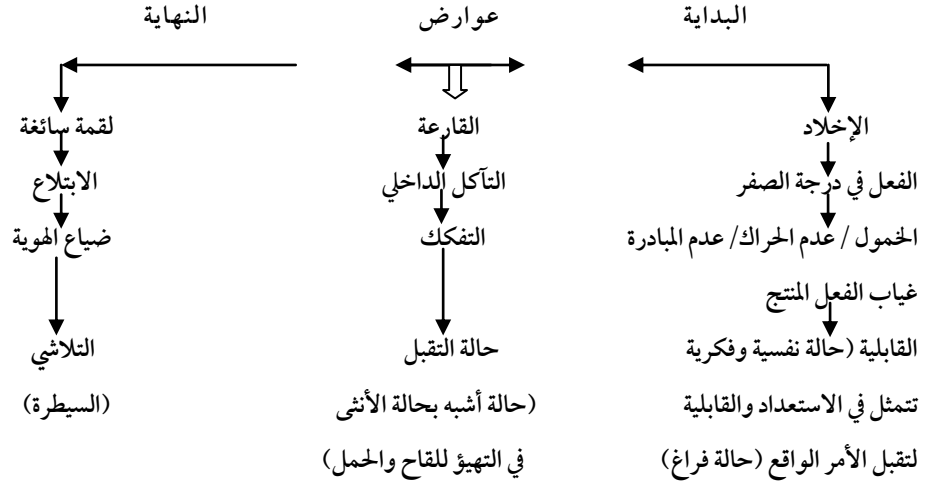

إن العلامات الثلاث قد جسدت مراحل السقوط الحضاري للأمة، فهناك بداية وهناك عوارض، أسباب رئيسية وأخرى ثانوية، وهناك نهاية محتومة. وهذه المراحل

التاريخية أو الزمنية تقابلها خطوات عملية تجسد بدورها فعل السقوط وتداعياته وأثاره وهي القابلية (الإخلاد) والتقبل (العوارض) والتلاشي، وكل أولئك يمثل قمة الانحدار والزوال والسقوط.

ومن ثم يمكن القول إن التنسيق اللفظي في نص المدونة المدروسة لم يكن إلا نتيجة اختيارات الكاتب التي يتساوق في سياقها اللفظ ودلالته الإيحائية، إذ لم يكن هدف الكاتب من اختياراته اللفظية مجرد الإخبار والإبلاغ وإنما قصد من ورائها إلى الإيحاء بمدلولات عميقة تتجاوز الراهن البائس إلى استشراف أو صياغة المستقبل الباسم. وسواء أكان التنسيق اللفظي ناتجا عن تساوق الاختيارات اللفظية أم عن تساوق الاختيارات الصوتية، فالأكيد أن جمالية اللفظ إنما تتشكل ضمن السياق وما يكتسبه فيه من خواص جمالية ودلالية تضفي عليه الجاذبية والتأثير والإشعاع.

مراجع البحث وإحالاته

1 ـ ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط. 2، عام: 1982، ص: 163

2 ـ القاضي عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (ط والعام بدون)، ص: 413

3 ـ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط. 1، عام: 1986، ص: 56

4 ـ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، تح، أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ط. 1، عام: 1959، ص: 210

5 ـ مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، ط. 2، عام: 1985، ص: 48

6 ـ ينظر: عبد الله محمد الغذامي، الخطيئة والتكفير، النادي الثقافي، جدة، ط. 1، عام: 1985، ص: 36

7 ـ علي نجيب، جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، دار كنعان، دمشق، ط. 2، عام: 2004، ص: 39

8 ـ ابن باديس، مقال الإصلاح بين أمس واليوم، ابن باديس حياته وآثاره (جمع عمار طالبي) ج: 3، دار الغرب الإسلامي، ط. 2، عام: 1983ص: 67

9 ـ ينظر: محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط. 1، عام: 1984، ص: 229

10 ـ إبراهيم عبد الله الجواد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، دار الثقافة، عمان، (د. ت.)، ص: 186

11 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، دار لسان العرب، بيروت، ط. بدون العام بدون، ج: 3، ص: 704

12 ـ محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط. 1، عام: 1979، ص: 305

13 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج: 2، ص: 854

14 ـ سورة إبراهيم: الآية: 42

15 ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح، رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط. 2، عام: 1987، ص: 69

16 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج: 1،ص: 3

17 ـ ينظر: إبراهيم عبد الله جواد، الاتجاهات الأسلوبية في النقد العربي الحديث، مرجع مذكور، ص: 199

18 ـ ينظر: منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، اتحاد كتاب العرب دمشق، ط. 1، عام: 1985، ص: 38

19 ـ م. ن، ص: 85

20 ـ م. ن، ص: 86

21 ـ أحمد سحنون، مقال بين الجد واللعب، دراسات وتوجيهات إسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط. 2، عام: 1992، ص: 226

22 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج: 3، ص: 342، 343

23 ـ م. ن. ج: 1، ص: 503، 504

24 ـ م. ن. ج: 2، ص: 1000

25 ـ أحمد سحنون، دراسات وتوجيهات إسلامية، ص: 306/ 307.

26 ـ الطيب االعقبي، مقال ماذا يلاقي المصلحون، البصائر، العدد: 50، عام: 1936، ص: 2

27 ـ مصطفى السعد ني، البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية، عام: 1987، ص: 69 عن فدريس، اللغة، : 231

28 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج: 1، ص: 528

29 ـ ينظر: منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص: 39

30 ـ ينظر: م. ن، ص: 41

31 ـ جورج مولينيه الأسلوبية، ترجم بسام بركة المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، ط. 1، عام: 1999، ص: 12، 13

32 ـ محمد الغسيري، مقال، الشيخ عبد الحميد بن باديس والكفاح الاجتماعي، البصائر، العدد: 78، العام: 2 ماي، عام: 1949، ص: 7، 8.

33 ـ ينظر: منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص: 40

34 ـ ينظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط ج: 1، ص: 876.

35 ـ ينظر: ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج: 3، ص: 65

36 ـ جورج مولينيه، الأسلوبية، ترجمة، بسام بركة ، ص: 12

37 ـ ابن منظور، لسان العرب المحيط، ج: 3، ص: 388